المكتبات في مصر في العصر الفاطمي

أ. حنان عبد الله محروس(*)

لم يكن الفتح الفاطمى لمصر فتحًا سياسيًا ومذهبيًا فحسب، بل كان أيضًا فتحًا حضاريًا وفكريًا وتنافسيًا على الريادة الأدبية والعلمية؛ لذلك يعد العصر الفاطمى فى مصر من أزهى العصور الإسلامية، كما تعتبر فتوحات الدولة الفاطمية فى الشرق الإسلامى على وجه العموم، وفى مصر على وجه الخصوص ذات أثر واضح على أحوال البلاد فى ذلك الوقت، حيث شهدت مصر نهضة عقلية وفكرية لا تقل ازدهارًا عن النهضة الحضارية التى شهدتها فى العصر الطولونى والإخشيدى، وعمل الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم على دفع الحركة العلمية، كما اهتموا بالكتب والمكتبات اهتمامًا كبيرًا باعتبارها أداة فعالة لنشر دعوتهم المذهبية ونفوذهم السياسى فى الشرق الإسلامى. وبسبب هذه النهضة الفكرية نشطت الحركة العلمية ونسخ الكتب فى مختلف العلوم والآداب، ويرجع ذلك إلى المذهب الإسماعيلى الذى جاء به الفاطميون، وما قام عليه من أسس ودعائم تخالف ما كان عليه أهل السنة فى مصر، فهب العلماء يؤيدون آراء هذا المذهب من جهة، ويجتهدون ويشرحون من جهة أخرى، ويؤلفون الكتب من جهة ثالثة؛ ونتيجة لذلك توافر العلماء والأدباء، وكثرت المؤلفات، وتنوعت العلوم والمعارف ولم تعد تقتصر على العلوم الدينية فقط.

وقد تجلت هذه النهضة فى إنشاء الفاطميين لدور العلم والعبادة والمكتبات، وإقامة مجالس الدعوة المذهبية فى القصور والمساجد، وتأليف الكتب كوسيلة لنشر العلم والثقافة بجانب نشر تعاليم المذهب الإسماعيلى، الذى يحتاج إلى المثقفين العارفين بأصوله ومبادئه، والقادرين على الجدال والمناقشة مع علماء المذهب السنى، وذلك لأن المذهب الفاطمى يقوم أساسا على العلم والعمل، والجدل والمناقشة.

كل هذه الأمور جعلتهم يقدرون العلم والعلماء ودور الكتب كأداة مهمة وفعالة لبسط نفوذهم الدينى والسياسى فى مصر وغيرها من البلاد المجاورة، وقد أدرك الخليفة المعز لدين الله ذلك الأمر وعرفه حق المعرفة وهو فى بلاد المغرب، وأخذ يشجع العلماء ويحثهم على تحصيل العلم والمعرفة.

(*) ماجستير فى الآداب ـ قسم المكتبات والوثائق وتقنية المعلومات ـ كلية الآداب – جامعة القاهرة.

هكذا كان الفاطميون منذ البداية على وعى كبير بدور الكتب والمكتبات فى تثقيف الشعب وتعليمه ونشر دعوتهم المذهبية، ويمكن القول بأن المكتبات الفاطمية أنشئت خصيصًا من أجل الدعوة إلى المذهب الفاطمى؛ لذا ظهرت أنواع كثيرة من المكتبات منها: مكتبات القصور، ومكتبات المساجد، والمكتبات الخاصة التى انتشرت بشكل كبير بين الأفراد والوزراء والأمراء والعلماء، والمكتبات العامة التى أنشأتها الدولة؛ من أجل ذلك جلب المعز لدين الله معه عند قدومه إلى مصر الكتب التى تتناول الدعوة المذهبية من مكتبته الخاصة بالقيروان، فكانت هذه الكتب النواة الأساسية التى قامت عليها أول مكتبة خاصة أنشأها الفاطميون فى مصر، وكانت تقع فى القصر الشرقى الكبير الذى بناه القائد جوهر الصقلبى – بعد نجاحه فى إقامة الدولة الفاطمية – لإقامة مولاه المعز لدين الله عند رحيله من المغرب، وأطلق عليه القصر الشرقى لأنه كان يقع بالقرب من السور الشرقى الكبير. فى هذا القصر كانت أول مكتبة فاطمية فى مصر، فقد قال المقريزى: "كانت بالقصر الكبير عدة خزائن منها خزانة الكتب"[(١)]، ويقصد بها مكتبة القصر الخاصة بالخلفاء الفاطميين.

وقد تجلى الاهتمام بهذه المكتبة فى عهد الخليفة العزيز بالله ثانى الخلفاء الفاطميين فى مصر، حيث بلغت فى عهده شأنًا عظيمًا أهّلها لأن تكون من عجائب الدنيا، ويقال: إنه "لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التى بالقاهرة فى القصر"[(٢)]. وقد بلغت هذه المكتبة من العظمة والجلال أن البابا سلفستر الثانى الذى ارتقى كرسى البابوية فى روما سنة (٣٩٠هـ / ٩٩٩م)، قال عنها متحسرًا: " إنه لمن المعلوم تمامًا أنه ليس ثمة أحد فى رومة له من المعرفة ما يؤهله لأن يعمل بوابًا لتلك المكتبة. وأنى لنا أن نعلم الناس ونحن فى حاجة لمن يعلمنا. إن فاقد الشىء لا يعطيه"[(٣)].

وبوصف المكتبات مؤسسات ثقافية تعليمية تربوية اجتماعية، فإنها لعبت دورًا مهمًا فى نشر المعرفة والثقافة بين أفراد الشعب المصرى؛ من أجل هذا حذا الوزراء والأمراء والعلماء حذو خلفائهم فى الاهتمام بالكتب والمكتبات، وحب الكتب وولعهم بها واحترامهم لها، مما دفعهم إلى جمعها والمحافظة عليها والعناية بها، فانتشرت المكتبات فى قصور الخلفاء والوزراء، وبيوت العلماء والأدباء، وكبار رجالات الدولة

(١) المقريزى، الخطط ، جـ١ ، ص٤٠٨ .

(٢) أبو شامة ، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، جـ١، ص٢٠٠ .

(٣) زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ص ٣٥٣- ٣٤٥ .

وأعيانها، ولم تخل المساجد من وجود مكتبة تزين أركانها، وظهرت المكتبات العامة وقامت بدور تعليمى وسياسى، وهكذا عرفت مصر فى العهد الفاطمى أنواعًا متعددة من المكتبات مما يدل على إدراك الفاطميين لدور المكتبات فى ازدهار المجتمع ورقيه ، ويعد سبقًا يسجل لهم فى ذاك الوقت.

وقد كانت مبانى المكتبات على درجة عالية من العظمة والجلال، والروعة والجمال؛ مما يدل على الاهتمام بها والعمل على تجديدها باستمرار، ولا شك أنها أفادت كثيرًا من الإمكانات المادية والبشرية التى وفرها الخلفاء الفاطميون للعناية بها والإنفاق عليها، حيث يعتبر مبنى المكتبة أول المقومات التى تعتمد عليها المكتبة فى أداء وظيفتها، حيث لا يوجد خدمة مكتبية حقيقية بدون مبنى مناسب؛ لذلك لم يدخر الفاطميون جهدًا فى تأسيس المكتبات وإعدادها الإعداد المناسب للقراءة والاطلاع والبحث.

وقد مرت المكتبات الفاطمية فى بداية الأمر بطورين : الأول : هو المكتبات الملحقة بمبانى موجودة بالفعل، ومنها : مكتبات المساجد والقصور ومنازل بعض الأفراد كالوزراء والأمراء والعلماء والأطباء، وهذه المكتبات كانت جزءًا من المكان أو البناء الذى وجدت فيه، وخير مثال على ذلك خزانة الكتب الخاصة بالخلفاء الفاطميين الملحقة بالقصر الشرقى الكبير، وكان هناك طريق يوصل بين باب تربة الزعفران وباب الزهومة، وهما بابان من أبواب القصر، وكانت خزانة الكتب تقع فيما بين باب الزهومة والجامع الأزهر، وذلك فى الجهة الشرقية من مدينة القاهرة[(١)] .

أما الطور الثانى : فهو المكتبات الكبرى التى أسستها الدولة وأفردت لها مبنى مستقلاً، أنشئ خصيصًا ليصبح مكتبة عامة، ونقصد بذلك دار العلم أو دار الحكمة الفاطمية التى أسسها الخليفة الحاكم بأمر الله سنة (٣٩٥هـ/١٠٠٥م)، وكانت هذه الدار تقع بجوار القصر الغربى الصغير بالقاهرة، الذى يقول عنه المقريزى: "لم يُبن مثله فى شرق ولا فى غرب"[(٢)]، وكان موضع المارستان الكبير المنصورى بجوار حارة برجوان[(٣)]، من الجهة البحرية خلف خان مسرور، ويدخل إليها من باب التبانين، وهو باب من أبواب القصر الفاطمى الصغير كان يعرف فى زمن المقريزى (القرن التاسع الهجرى/الخامس

(١) المقريزى، الخطط، جـ١ ، ص٣٦٣ .
(٢) المصدر السابق ، جـ ١ ص٤٥٧ .
(٣) المصدر السابق ، جـ ١ ص٣٦٣، ٤٥٧ .

عشر الميلادى) بقبو الخرنشف، وصار فى موضع هذه الدار بيت آل الخضيرى بدرب الخضيرى المقابل لمسجد الأقمر[١]، وكان ذلك فى خلافة الحاكم بأمر الله.

واستمرت دار العلم فى هذا المكان إلى أن أغلقها الوزير الأفضل بن بدر الجمالى (ت٥١٥هـ/١١٢١م)، وبعد وفاته أعاد فتحها الوزير المأمون أثناء خلافة الآمر بأحكام الله، ولكن فى موضع جديد بجوار القصر الكبير الشرقى من مدينة القاهرة[٢]؛ حيث حلت محل دار قديمة كانت موجودة خلف خزانة الدرك من باب تربة الزعفران[٣]، وأصبحت هذه الدار المكان الجديد لدار العلم إلى أن تداعت الدولة الفاطمية وزالت على يد الأيوبيين.

ولم يتوان الفاطميون فى تجميل وتزيين المبانى الملحق بها مكتباتهم، لإدخال البهجة والسرور فى نفوس القراء والرواد، فاستخدموا أكثر من وسيلة منها : إحاطة هذه المبانى بالبساتين والحدائق والأشجار والإكثار منها، فقد كان يحيط بقصور الخلفاء بساتين ذات شأن عظيم تعرف بالبساتين الجيوشية[٤]، وذلك للتنزه والترويح عن النفس، كما كان يوجد بدار الوزير الأفضل بستان كبير ومائة وعشرون مجرى للماء الذى يجرى فى البرك والحياض[٥] .

ومن هذه الوسائل أيضًا : تجديد مبانى المساجد الملحق بها مكتبات، وإعادة عمارتها، فعلى سبيل المثال تم تجديد مسجد عمرو بن العاص، فبيضت أروقته، وزينت أبوابه الخمسة الشرقية بخمسة ألواح منقوشة ومذهبة، علقت على أبوابه بأمر من الوزير برجوان أثناء خلافة الحاكم بأمر الله[٦]، كما زيد عدد مجالسه حتى بلغت فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى مائة وعشرة مجالس[٧]، وأدخلت عليه إضافات كثيرة وغريبة منها: "ثريا فضية لها ستة عشر جانبًا"[٨].

وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على حرص الفاطميين واهتمامهم بتهيئة الجو

---

(١) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ ٣ ، ص٣٦٢ .
(٢) المقريزى ، الخطط ، جـ١، ص٣٨٤ .
(٣) المصدر السابق ، جـ ١ ص٤٤٥ .
(٤) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص٤٨٧ .
(٥) المصدر السابق جـ ١ ، ص٤٣٩ ، ٤٠٨ .
(٦) المصدر السابق ، جـ٢ ، ص٢٥٠ .
(٧) المقدسى ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ٢٠٥ .
(٨) ناصر خسرو . سفرنامه ، ص٥٩ .

المناسب والهادئ للمترددين على هذه المكتبات، وتوفير وسائل الترفيه والترويح عن النفس لهؤلاء القراء، حتى لا يتسرب إلى نفوسهم الضيق والملل.

وهكذا كان الشكل العام للمبانى الفاطمية على درجة عالية من العظمة والفن والجمال كما هو واضح فى بناء قصورهم ومساجدهم فى مصر بعد فتحهم لها، وإذا كان هذا هو حال المبانى كما يصفها المؤرخون، فإن المكتبات الملحقة بها بالضرورة لم تكن تقل عنها روعة وجمالا.

وكما تميزت المكتبات الفاطمية بالعظمة والبهاء والجمال، فقد تميزت أيضًا بالسعة والضخامة، وضمت العديد من القاعات والحجرات، لكى تستوعب مجموعات الكتب الكبيرة، وفى الوقت نفسه لتستوعب كافة العاملين بها، وفئات المترددين عليها من قراء ونساخ ومؤلفين ودارسين، وأساتذة وعلماء وغيرهم ممن لهم اهتمام كبير بالعلم والمعرفة، والاطلاع والبحث.

كذلك خصص الفاطميون فى بعض المكتبات حجرات لتقديم خدمات أخرى غير القراءة كإلقاء المحاضرات وعقد المناظرات التى كانت تتم بين العلماء والفقهاء حول مبادئ الدعوة الفاطمية لإقناع الناس بها، ومن ثم اعتناقها، وكذلك لاجتماع أهل العلم والطلاب للمحاضرة فى أمور العلم المختلفة. فقد كان ملحقا بمكتبة القصر قاعة للمحاضرات، يطلق عليها (المحول)، وهى أشبه بقاعة المحاضرات العامة فى عصرنا الحاضر، وكان يجتمع فيها داعى الدعاة بالحاضرين لإلقاء المحاضرات وعقد المناظرات[١].

كما زود الفاطميون مكتباتهم على اختلاف أنواعها بالأثاث والأدوات وغيرها من التجهيزات اللازمة، لتكون مهيأة لاستقبال الرواد من جميع الفئات، ووفروا لها ما يلزمها من احتياجات لحفظ مجموعات الكتب وتسهيل استخدامها وتناولها من قبل المترددين.

وتشمل هذه التجهيزات كل ما يلزم المكتبة من البُسط والفرش والستور، وصناديق الكتب والرفوف المستعملة فى حفظها وتخزينها، بالإضافة إلى الأدوات الكتابية على اختلاف أنواعها وأشكالها، كالورق والأقلام والحبر والدَّوَى، وغيرها من الأدوات التى تستعمل فى الكتابة وعملية النسخ، ووفروا هذه الأدوات فى مكتباتهم لاستخدامها من

(١) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص٦٨ .

قبل القائمين على أعمال النسخ، فضلاً عن استخدامها من قبل الرواد ممن يريد نقل أو نسخ شىء من الكتب.

وقد اهتم الفاطميون بصيانة كتب مكتباتهم والمحافظة عليها؛ لذلك كانت كتبهم مجلدة بجلود جميلة النقوش وغريبة الصنعة[١]، ولم يهتموا بتجليد كتبهم فقط، وإنما كانت هناك أيضًا متابعة مستمرة لهذه الكتب لإصلاح وترميم ما تشعث منها، وفى الوقت نفسه اهتموا بتزيين كتبهم، حيث كانت الكتب مزينة ومحلاة من الداخل والخارج، وكانوا يستعملون الذهب والفضة فى كتابة بعض النصوص، خاصة القرآن الكريم الذى كان يوجد منه فى خزانة القصر ألفان وأربعمائة مصحفًا، محلى بالذهب والفضة وغيرهما[٢].

ولضمان استمرار المكتبات فى أداء عملها، كان لا بد من توافر هذه المقومات الأساسية المتمثلة فى المبنى والتجهيزات من أثاث وفرش وأدوات كتابية... إلخ، وكان لا بد من توفير الاعتمادات والموارد المالية الكافية للإنفاق على هذه المتطلبات؛ لذلك حرصت الدولة الفاطمية على كفالة المكتبات وتخصيص الموارد المالية للإنفاق عليها، وأولت اهتمامًا خاصًا للإنفاق والصرف على المكتبات العامة الكبيرة التى يقصدها الجميع من عامة الشعب من داخل القطر وخارجه.

وتعد الميزانية بشقيها : التمويل والصرف من الدعائم الأساسية لاستمرار المكتبات فى أداء عملها، وتتأثر الميزانيات عمومًا بالأحوال الاقتصادية فى البلاد، ورغم أهمية هذا العنصر ودوره الفعال بالنسبة لمكتبات مصر الفاطمية إلا أن المصادر التاريخية لم تقدم لنا من ميزانيات هذه المكتبات إلا ميزانية واحدة، هى ميزانية دار العلم الفاطمية التى تمثل المكتبة العامة للدولة، وما دون ذلك مجرد معلومات متفرقة فى ثنايا الحديث، وبشكل عرضى غير مفصل.

وقد اهتم الفاطميون بتوفير الإيرادات والأموال لتأمين الإنفاق على دور العلم والمكتبات، إيمانًا منهم بأهمية الدور الذى تلعبه المكتبات كمؤسسات تعليمية ومنافذ لنشر دعوتهم المذهبية؛ لذلك خصصوا لها الأموال وحبسوا عليها الأوقاف، وغير ذلك من الأموال التى تأتى عن طريق الهبات والمنح والعطايا .

---

(١) المقريزى ، الخطط ، جـ١ / ص ٤٠٩ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ١ /ص٤٠٨ ؛ انظر أيضًا: اتعاظ الحنفا ، جـ٢ / ٢٩٤ .

ويعد الوقف من أهم الموارد المالية التى رصدتها الدولة الفاطمية للإنفاق على مكتباتها، وخاصة المكتبة الرسمية للدولة (دار العلم)، التى خصصت لها اعتمادات مالية معلنة ومكتوبة لضمان استمرارية العمل فيها[١].

وليس لدينا أرقام دقيقة أو تقريبية للمبالغ التى تم رصدها أو وقفها على المكتبات، حيث لم تزودنا المصادر بنصوص كافية للتعرف على موازناتها، اللهم إلا نص واحد حفظه لنا المقريزى، وهو نص وقفية الحاكم بأمر الله على دار العلم فى القاهرة، التى أوقف عليها أماكن فى فسطاط مصر ضمنها وثيقة شهد عليها قاضى القضاة مالك بن سعيد[٢]، وذلك حرصًا من الحاكم على توفير موارد مالية كافية تعين على استمرار دار العلم فى تقديم خدماتها للمستفيدين منها.

ويُعد وقف الحاكم بأمر الله لدار العلم أول الموازنات المخصصة للمكتبات فى العالم الإسلامى، وتعتبر سبقًا ونموذجًا ومثالاً تحتذيه المكتبات فى تحديد وجوه الصرف حتى لا يطغى جانب على آخر، كما تعد دار العلم أبرز نموذج للمكتبات التى أسست منذ البدء على هذا النظام الوقفى.

وقد رصد الحاكم بأمر بالله فى وقف دار العلم جزءًا من الإيرادات المالية لتمويل المساجد والجوامع والإنفاق عليها، وأوقف هذه الإيرادات على الجامع الأزهر بالقاهرة والجامع الحاكم براشدة، والجامع بالمقس[٣]، ومن المنطقى أن تستفيد مكتبات هذه المساجد من أموال هذا الوقف العظيم فى الإنفاق عليها.

وتعد إيرادات الأحباس التى أقرها الحاكم بأمر الله سنة (٤٠٣هـ/١٠١٢م) على المساجد والجوامع موردًا مهمًا لتمويلها، وتغطية ما تحتاج إليه من النفقات والمصروفات فى كل شهر[٤].

أما المكتبات الخاصة التى انتشرت فى هذا العصر، فلم يدخر أصحابها جهداً فى الإنفاق عليها، بل رصدوا لها الأموال اللازمة لاحتياجاتها ونفقاتها، وليس أدل على ذلك من أن العاملين من النساخ فى مكتبة الوزير يعقوب ابن كلس (ت٣٨٠هـ/٩٩٠م) كانوا يكلفونه كثيرًا من الأرزاق[٥]، وكذلك كان للنساخ الموجودين فى مكتبة الطبيب أفرائيم ابن الزفان (ت٥٩٤هـ/١١٩٨م) ما يقوم بكفايتهم منه[٦].

(١ ،٢) المقريزى ، الخطط . جـ١ / ص٤٥٩ .
(٣) المصدر السابق ، جـ٢ / ص٢٧٣ .
(٤) المقريزى ، الخطط . جـ٢ / ص٢٩٥ .
(٥) المصدر السابق ،جـ ٢ / ص٦ .
(٦) ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، جـ٣ / ص٧٤ .

ولم تكن الأوقاف هى المورد المالى الوحيد - وإن كانت المورد الأساسى - للصرف على المكتبات، وإنما شكلت الموارد الأخرى كالهبات والمنح والعطايا والأرزاق والخُلع مصدرًا من مصادر التمويل والإنفاق على هذه المكتبات، سواء كان ذلك من جانب الدولة أو الأفراد.

وتعتبر القوى البشرية أو الهيئة العاملة بالمكتبات هى العنصر الثالث من العناصر التى تقوم عليها المكتبات، وهى لا تقل فى الأهمية عن العنصرين السابقين : المبنى والميزانية، لأنه بدون هيئة من العاملين لا يمكن تسيير العمل فى المكتبات. ولكى يضمن الفاطميون تأدية المكتبات لوظائفها وخدماتها، كان لا بد من توفير إدارة ناجحة لإدارتها وتنظيمها، وتعيين كوادر فنية متخصصة للعمل فيها والقيام بمهامها، وذلك إيمانًا منهم بأن الإدارة الناجحة والمتخصصة سوف تساعد على نجاح هذه المكتبات فى تأدية دورها التى أقيمت من أجله، وبالتالى نجاح الدعوة المذهبية فى تحقيق الانتشار بين طبقات المجتمع المصرى .

وقد كان للخلفاء الفاطميين اهتمام عظيم بإدارة مكتباتهم، واشترك معهم فى ذلك بعض الوزراء والعلماء، وكان لهم الحق فى الإشراف العام على المكتبات، سواء العامة منها والخاصة، الكبيرة والصغيرة، الملحقة والمستقلة.

وقد بلغ هذا الاهتمام ذروته لدرجة أن الخليفة الفاطمى العزيز بالله كان يشرف بنفسه على خزانة كتبه ويتعهدها بعنايته، وذلك قبل أن يعين لها مشرفًا، وكثيرًا ما كان يزورها للاطلاع ولتسجيل ملاحظاته على الكتب وتقرير ما يصلح منها لوضعه على الرفوف، واستبعاد ما لا يصلح.

وكان لإشراف الخلفاء الفاطميين بأنفسهم على مكتباتهم أكبر الأثر فى نجاح هذه المكتبات، ومساعدتها فى القيام بمهامها الوظيفية، وأداء رسالتها فى نشر المذهب الإسماعيلى .

وقد تولى إدارة المكتبات الفاطمية مجموعة من ألمع الكوادر الفنية المتخصصة، واكتسبت هذه المكتبات شهرتها بفضل العاملين بها من كبار العلماء والفقهاء والقضاة والأدباء الذين حملوا على عاتقهم مهمة القيام بوظائفها، وكانوا فى حقيقة الأمر رجال دين وأدب وعلم وفضل، تميزوا بمركز أدبى واجتماعى رفيع فى الدولة.

فعلى سبيل المثال كان المشرف العام على سير الدعوة الفاطمية والقائم بأعمالها فى المكتبات رجل دين يسمى داعى الدعاة، تم إلحاقه بهذه الوظيفة لما يتمتع به من

صفات، أهمها علمه بالمذهب الإسماعيلى، ومعرفته ببواطن العقيدة المذهبية، أما ما يتعلق بالمكتبات من أعمال إدارية وفنية فكانت من اختصاص أمناء المكتبات الذين كانوا على درجة كبيرة من العلم والثقافة تؤهلهم لشغل هذه الوظيفة.

ووظيفة المشرف أو الناظر من الوظائف الإدارية العليا التى تتولى مهمة الإشراف والنظر فى أمور المكتبات وما تحتاج إليه، ولما كان الهدف الأساسى من الكتب والمكتبات فى مصر الفاطمية هو نشر المذهب الإسماعيلى، وإذاعة تعاليمه بين الناس، فقد كان طبيعيًّا أن تخضع المكتبات الفاطمية لرقابة صارمة ومتشددة من جانب الخلفاء والوزراء، وكان عليهم تعيين مشرفين أو نظار على هذه المكتبات للإشراف والنظر فى أمورها، ومتابعة الأعمال والمهام، والرقابة على عملية وضع الكتب وتنظيمها، خاصة الكتب المتعلقة بالدعوة المذهبية، وكان المشرف أو الناظر يتولى السلطة كلها فى المكتبات الفاطمية، وهو أشبه بوظيفة المدير العام للمكتبة فى عصرنا الحاضر.

وقد اختص داعى الدعاة - الذى كان يسند إليه مع الدعوة فى كثير من الأحيان أمر القضاء أيضًا - بوظيفة الإشراف العام على المكتبات بمختلف أنواعها ومستوياتها، والنظر فى أمور الدراسة والتعليم بها، ومراقبة الحلقات الدراسية المذهبية لارتباطها المباشر بعمله الرئيس فى الدولة، وهو نشر الدعوة المذهبية والدعاية لها.

لهذا كان لا بد من توافر عدة شروط فيمن يكلف بهذا المنصب المهم والخطير فى الدولة، أهمها : التعمق فى المذهب الإسماعيلى ومعرفة أسرار العقيدة الفاطمية، والثقافة الواسعة الشاملة، والذكاء والفطنة السياسية والدينية، والتمكن من اللغة وأساليب البلاغة والخطابة، والقدرة على الإقناع والتأثير فى العقول. فتوافر هذه المقومات يساعد على التواصل بين الناس بمختلف طبقاتهم، ومن ثم يساعد على نجاح الدعوة فى الوصول إلى العقول والقلوب.

ولأهمية هذا المنصب كان داعى الدعاة يتم اختياره وتعيينه من قبل الخلفاء الفاطميين، إلى أن تولى الوزارة أمير الجيوش بدر الجمالى الذى استبد بشئون البلاد وقبض على مقاليد الحكم بها سنة (٤٦٦هـ/١٠٧٤م)، فأصبح ابتداء من هذا التاريخ يتم تعيين المناصب العليا فى الدولة، ومنها قاضى القضاة وداعى الدعاة، على يد الوزراء(١).

(١) المقريزى ، الخطط، جـ١ / ص ٤٠٣ .

وقد اختص بهذه الوظيفة على سبيل المثال، داعى الدعاة الحسين بن النعمان بن حيون المغربى (ت٣٩٥هـ/١٠٠٥م)، وهو من أمهر فقهاء المذهب الشيعى، وقد فوضه الحاكم بأمر الله فى الإشراف على المساجد والجوامع - بما فى ذلك المكتبات - والقوامة على "الخزنة والخطباء والمؤذنين فيها، وعلى سائر المتصرفين فى أعمالها ومصالحها"(١)، وداعى الدعاة عبد العزيز بن محمد بن النعمان (ت٤٠١هـ/١٠١٠م)، وهو أحد مؤسسى المذهب الإسماعيلى المخلصين، وسليل أسرة النعمان التى اشتهرت بوفائها وإخلاصها للعقيدة الشيعية، وكان عبد العزيز عالمًا من علماء الفقه على مذهب الإمامية، كحال آل بيت النعمان، وقد تولى وظيفة القضاء مع الدعوة، وكلفه الحاكم بأمر الله بالنظر فى دار العلم، والإشراف عليها مدة وظيفته داعيًا للمذهب، فكان بذلك أول المشرفين على دار العلم، كما فوضه الحاكم بأمر الله بالنظر فى المساجد - بما فى ذلك المكتبات - وتفقد أوقافها، وجمع الريع وصرفه فى وجوهه، ففعل ما أسند إليه من أعمال ومهام وبالغ فيه، وأفرد لذلك شاهدين يضبطانه(٢).

ولأهمية الإشراف على دار العلم لدى الخلفاء الفاطميين، نجد أن الحاكم بأمر الله كان حريصًا كل الحرص على أن يكون أول المشرفين عليها عالمًا فقيهًا من علماء الدعوة الفاطمية وأمينًا عليها، للإشراف باهتمام وجدية على دروس الدعوة ومجالسها، مما يؤكد على الصفة الدعائية لدار العلم هذه، وأنها أنشئت منذ البداية لتكون معقل الدعوة المذهبية والدعاية لها.

ووظيفة الخازن أو متولى الكتب هى الوظيفة الأولى والأساسية فى جميع أنواع المكتبات، والمسئولة إداريًا وفنيًا عن كل ما يتعلق بالعمل الداخلى فى المكتبة، وهو ما يطلق عليه حاليًا أمين المكتبة، وكان الخزنة فى المكتبات الفاطمية من رجال الأدب أصحاب المكانة الرفيعة، الذين تمتعوا بسمات وأخلاق حميدة، وخبرة واسعة فى المجال، وكانوا من العلماء المشهورين فى الدولة، ولم يكن يشترط فيهم أن يكونوا من رجال الدين، ومع ذلك فقد جمعوا إلى معارفهم الأدبية بعض المعارف الدينية. ولم تقتصر معارفهم على اللغة والنحو فحسب، بل أضافوا إليها الشعر والتاريخ والفلسفة والمنطق، حتى تحصل لهم ثقافة شاملة يستحقون معها أن يطلق عليهم اسم أدباء، وأن

(١) الكندى ، الولاة والقضاة، ٥٩٧، انظر أيضًا: القلقشندى، صبح الأعشى جـ١٠ ص٣٨٧ .

(٢) ابن حجر العسقلانى، رفع الإصر، جـ١ . القسم الثانى، ص ص ٣٥٩-٣٦٣، انظر أيضًا: الكندى ، المصدر السابق، ص ص٥٩٩-٦٠٣ .

يتولوا أهم وظيفة فى مكتبات بها كل صنوف المعرفة الإنسانية.

وتتمثل طبيعة عمل الخازن ومهامه - فى ذلك الحين - فى وضع الكتب على الرفوف وتنظيمها بحيث يسهل الوصول إليها من جانب القراء والمترددين، وتوفير الأدوات اللازمة من أقلام وورق وحبر وإتاحتها للمستفيدين، وكذلك تنظيم عملية إعارة الكتب والمخطوطات التى يطلبها الخلفاء[١]، والتى يحتاجها العلماء الذين يذهبون إلى المكتبة لإلقاء المحاضرات وعقد المناظرات.

ولما كان الخازن موسوعة أدبية وثقافية شاملة، وعلى دراية بمختلف العلوم، وبالفقه الشيعى بصفة خاصة، فقد أهله ذلك للقيام بوظيفة أخرى - بجانب عمله المكتبى - هى التدريس والمحاضرة داخل المكتبة، فكان يتولى خزانة الكتب والتدريس معًا.

ويبدو أن جَمْع الخازن أو أمين المكتبة بين عمله المكتبى وبين التدريس ـ سواء فى المكتبات العامة أو مكتبات المساجد ـ كان يعطيه بعدًا علميًّا وثقافيًّا، يجعله على معرفة دائمة بميول القراء واتجاهاتهم؛ مما يعد سبقًا للفاطميين. وهذا ما تنادى به الإدارة الحديثة للمكتبات، حيث يشترط أن يكون أمين المكتبة على قدر كبير من الثقافة وتنوع المعارف بجانب علوم التخصص، حتى يكون أكثر تفهمًا وإدراكًا لاحتياجات المستفيدين من المكتبة على اختلاف فئاتهم ومستوياتهم العلمية؛ مما يساعد على نجاح المكتبة فى تحقيق أهدافها وتلبية احتياجات المستفيدين منها.

وقد وردت وظيفة الخازن بشكل صريح وواضح فى وقفية دار العلم بالقاهرة[٢]، كما جاء ذكرها فى وصف المقريزى لخزانة الكتب بالقصر عندما أمر الخليفة "خزان دفاتره"[٣] بإخراج وإحضار بعض الكتب من الخزانة للاطلاع عليها والنظر فيها.

ومن أشهر من تولى هذه الوظيفة فى المكتبات الفاطمية ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ محمد بن إسحاق الشابشتى (ت٣٨٨هـ/٩٩٨م)، وكان أديبًا فاضلاً، وعالمًا جليلاً من أدباء مصر وعلمائها ومؤرخيها المشهورين فى العصر الفاطمى، اختص بخدمة العزيز بالله فولاه خزانة كتبه، واتخذه من جلسائه وندمائه، وجعله يقرأ له الكتب ويحاوره فيها، وله عدة تصانيف أسهمت فى رقى الحياة الفكرية فى ذلك الوقت، منها :

(١) المقريزى ، الخطط، جـ١ / ص ٤٠٨ .
(٢) المقريزى، الخطط ، جـ١ / ص ٤٥٩ .
(٣) المصدر السابق ، جـ ١ / ص ٤٠٨ .

كتاب (الديارات)، وكتاب (مراتب الفقهاء)، وكتاب (التوقيف والتخويف)[(١)]. وأبو الحجاج يوسف بن عبد الجبار(ت٥٥٦هـ/١١٦٠م)، الذى رحل إلى مصر بعد غزو الفرنج للقدس، فعاش بها واشتغل بالعلم والدرس، وتولى خزانة الكتب فى ولاية الخليفة الآمر بأحكام الله[(٢)]، وعبد الجبار بن إسماعيل بن عبد القوى (ت٥٦٩هـ/١١٧٤م)، ويقال له : الحاج ابن عبد القوى، من أعيان الدولة الفاطمية وأنصارها، وقد تقلد وظيفة الخازن فى خزانة الكتب فى عهد الخليفة العزيز بالله، وكان الخليفة يتردد عليها ويُحضر إليه ابن عبد القوى المصاحف والمخطوطات التى يقترحها الخليفة للقراءة فيها[(٣)]. وأبو محمد حسن بن آدم (ت٥١٧هـ/١١٢٣م)، الذى تولى دار العلم بعد إعادة فتحها مرة أخرى فى عهد الخليفة الآمر بأحكام الله، واستخدم فيها مقرئين[(٤)].

وقد فطن الفاطميون إلى أهمية النساخين بالنسبة لمكتباتهم؛ فقاموا بتوفير العاملين من النساخ الذين كان عددهم يختلف باختلاف حجم المكتبة وإمكاناتها المادية، وذلك للعمل على توفير أعداد كثيرة من نسخ الكتاب الواحد داخل المكتبة؛ مما يؤدى إلى تحقيق رغبات عدد من المستفيدين من الكتاب الواحد فى نفس الوقت، خاصة الكتب المتعلقة بالمذهب الرسمى للدولة.

وقد تم تعيين ناسخ فى دار العلم الفاطمية، حيث خصصت الوقفية الشهيرة بها مبلغًا من المال "لورق الكاتب يعنى الناسخ"[(٥)]، وبالرغم من أن هذه الوقفية لم تعين وظيفة الناسخ إلا ضمنيًا - بينما عينت وظيفة الخازن والفراش بشكل صريح[(٦)] - إلا أن هذا لا يعنى بأى حال من الأحوال التقليل من أهمية عمل الناسخ فى دار العلم، ولا ينفى اشتغال بعض كبار العلماء والفقهاء بالنسخ فيها، خاصة أن عملية النسخ كانت مصدرًا مهمًا من مصادر التزويد بالنسبة للمكتبات فى ذلك الوقت.

وعلى الجانب الآخر يرد ذكر الناسخ بشكل صريح فى حديث المقريزى عن خزانة الكتب بالقصر الفاطمى، فيقول : "وفيها ناسخان"[(٧)]، وقد تم تعيينهما فى الخزانة من قبل الخليفة الفاطمى، للقيام بالنسخ لحساب الخزانة والعمل فيها بصفة دائمة.

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣ / ص٣١٩، انظر أيضًا: ياقوت الحموى، معجم الأدباء، جـ١٨ / ص ص١٦-١٧ .
(٢) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ / ص٢٥٥ .
(٣) المقريزى ، الخطط ،جـ١ ، ص٤٠٩ .
(٤) المصدر السابق ، جـ ١ / ص٤٥٥-٤٦٠ .
(٥، ٦) المقريزى، الخطط ، جـ ١ / ص٤٥٩ .
(٧) المصدر السابق ، جـ ١ / ص ٤٠٩ .

وكان يشتغل بالنسخ فى المكتبات الفاطمية فئتان من النساخ، فئة يتم تعيينها للعمل بالمكتبة أو الخزانة مقابل ما يجرى عليهم من مرتبات وأرزاق وهبات؛ فخزائن كتب أفرائيم بن الزفان الطبية، كان فيها نسّاخ بصفة دائمة، ينسخون له ولهم ما يقوم بكفايتهم من العطايا والأرزاق(١)، كما كان لمكتبة القاضى الفاضل نساخ دائمون، لا يفرغون من النسخ له(٢).

أما الفئة الثانية فلم يكونوا موظفين بالمكتبة، وهم النساخ الذين كانوا يحضرون إلى دار العلم، فيجلسون فيها، وينسخون مما فيها من الكتب والمخطوطات(٣).

وكان من مهام الناسخ - بجانب عملية النسخ - تحقيق الكتب ومراجعتها بعد الانتهاء من نسخها؛ للتأكد من عدم وجود أخطاء بها، ومن أنه لم يغفل سطرًا ولم يسقط منه كلمة سهوًا أثناء عملية النسخ، فقد كان النساخ فى مكتبة الوزير يعقوب بن كلس إذا فرغوا من عملية النسخ يبدأون فى مقابلة النُسخ، ثم يعارضونها ويشكلونها وينقطونها(٤).

وكان القائمون على عملية النسخ فى المكتبات الفاطمية على مستوى عال من جودة الخط وجماله، فقد ذكر المقريزى أن المخطوطات التى كانت تزخر بها مكتبات الفواطم - سواء العامة منها أو الخاصة أو مكتبات المساجد - كانت مكتوبة بخطوط منسوبة زائدة الحسن والجمال(٥)، والخط المنسوب هو من يُعرف صاحبه، ويشتهر بجودة خطه، كما كانوا أيضًا من العلماء والأدباء المشهورين بالعلم الغزير والثقافة الواسعة.

ورغم أهمية هذه الوظيفة فى المكتبات الفاطمية، إلا أننا لم نقف تحديدًا على أسماء أو تراجم للعاملين من النساخ فى هذه المكتبات، حيث لم تذكر لنا المصادر التى أرخت للعصر الفاطمى سوى الصفة الوظيفية لهم، باستثناء ناسخ واحد، هو محمد بن سعيد بن هشام الحجرى المعروف بابن ملساقة، وكان من جملة النساخ القائمين بالنسخ لأفرائيم بن الزفان، وقد "وجدت بخطه عدة كتب قد كتبها لأفرائيم، وعليها خط

(١) ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، جـ٣ / ص ١٧٤ .
(٢) المقريزى، الخطط ، جـ٢ / ص ٣٦٧ .
(٣) المقريزى، الخطط ، جـ١ / ص ٤٥٨ .
(٤) المصدر السابق ، جـ٢ / ص٦ ؛ انظر أيضًا: ابن خلكان ، وفيات الأعيان، جـ٧ / ص٢٩ .
(٥) المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٢ / ص٢٩٤ .

أفرائيم"[١]، وربما يرجع ذلك إلى أن النَّسْخ كان فى مرتبة أدنى من الوظائف الأخرى فى المكتبة.

وانطلاقا من التنافس مع بنى العباس فى جمع الكتب وبناء مجموعاتها حرص الفاطميون على جمع أكبر عدد ممكن من الكتب، والحصول على أندر المؤلفات وأشهرها فى مختلف العلوم، ليس هذا فحسب بل إنهم جمعوا فى مكتباتهم نسخًا كثيرة من المؤلف الواحد، حتى ينفردوا بالفخر بها.

وترجع أهمية هذه المجموعات إلى كونها الأساس الذى يبنى عليه بقاء المكتبة واستمرارها فى أداء عملها وخدمة المستفيدين منها. فبدون وجود هذه المجموعات لا وجود للمكتبة، ولا سبيل للاستفادة منها؛ لهذا فإن استمرار المكتبات مرهون بما تضمه من مجموعات، ومدى تنوع هذه المجموعات لتلبية احتياجات المترددين عليها.

وإدراكًا لما للمجموعات من دور فعال، حرص الفاطميون على تزويد مكتباتهم بكل ما تحتاج إليه من المؤلفات فى مختلف العلوم والمعارف، ولم يتركوا بابًا من أبواب المعرفة والعلم إلا صنفوا فيه مؤلفات دلت على نبوغهم وتفوقهم، وفى ذات الوقت أثرت المكتبات الفاطمية على اختلاف أنواعها ومستوياتها، حتى بات الفاطميون يتباهون بضخامة مجموعات مكتباتهم وكثرة عددها وتنوع موضوعاتها.

والمجموعات التى نعنيها هنا هى الكتب المخطوطة سواء أكانت عربية، أو غير عربية، وسواء أكانت فى شكل لفائف أو فى شكل صحف ضم بعضها إلى بعض فى شكل دفاتر أو كراريس[٢]، وقد ضمت المكتبات الفاطمية أيضًا مواد أخرى غير الكتب، كالخرائط والمجسمات والصور وغيرها من المواد التى تعد سبقًا للفاطميين فى ذاك الوقت.

ويبدو أن الاهتمام بنشر العقيدة الشيعية وتعريف الناس بها عن طريق المكتبات، كان شديدًا فى ذلك الوقت؛ لذلك كان يغلب على مجموعات هذه المكتبات علوم آل البيت وفقه الشيعة، هذا بجانب العلوم الشرعية كعلوم القرآن الكريم من تفسير وقراءات، وعلوم الحديث الشريف والفقه والكلام، وغيرها من العلوم ذات الصلة كعلوم اللغة العربية (من نحو وصرف وبلاغة) التى تساعد على فهم المذهب الإسماعيلى، وما يتعلق به من أفكار وآراء.

(١) ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، جـ٣ / ص ١٧٤ .

(٢) عبد الستار الحلوجى، المخطوط العربى ، ص ١٥ .

هذا بالإضافة إلى كتب العلوم العقلية والطبيعية، كالفلك والرياضة والتنجيم والكيمياء والفلسفة والمنطق والتاريخ، حتى باتت هذه المكتبات تتميز عن مكتبات العالم الإسلامى بما فى خزانتها من كتب قيمة فى شتى المجالات. ولعل السبب فى ذلك أن المذهب الإسماعيلى يدعو إلى التسلح بجميع العلوم والآداب حتى يتسنى لعلمائه ودعاته أن ينهجوا منهجًا علميًا فى نشر عقائده، وتفنيد أقوال الخصوم، والرد عليهم بأدلة علمية.

وبعد هذا الاستعراض السريع للمجموعات المكتبية بمكتبات مصر الفاطمية ومدى تغطيتها الموضوعية، ننتقل إلى العمليات الفنية والإجراءات التى تتم على تلك المجموعات داخل المكتبات بهدف تنظيمها وتيسيرها للمستفيدين منها.

وينقسم العمل فى المكتبات عادة إلى شقين رئيسين : الشق الأول : يتعلق بتكوين المجموعات وتنميتها عن طريق تزويدها بكل ما هو جديد، ويعد ذلك الوظيفة الأولى من وظائف المكتبة، أما الشق الثانى : فيتعلق بالجانب التنظيمى داخل المكتبات بعملياته وإجراءاته المختلفة بهدف تنظيم هذه المجموعات حتى يسهل الاستفادة منها.

ويعتبر التزويد هو الإجراء المكتبى الأول الذى يتوقف عليه باقى الإجراءات. وقد تنافس الخلفاء الفاطميون مع بنى العباس فى إنشاء المكتبات على اختلاف أنواعها، وتزويدها بالمؤلفات والمصنفات فى جميع العلوم والآداب، ونهج كبار رجالات الدولة من وزراء وعلماء وأدباء وأطباء وغيرهم نهج خلفائهم فى طلب الكتب والحصول عليها بشتى الطرق، وبذلوا فى ذلك الأموال والهبات. وتعددت مصادر التزويد فى المكتبات الفاطمية، فكانت الكتب، وغيرها من المواد من ترد إلى المكتبات إما عن طريق الوقف، أو الشراء، أو النسخ، أو التأليف، أو الإهداء، أو المصادرة.

وكما كان هناك اهتمام بتزويد المكتبات الفاطمية بالكتب والمؤلفات فى جميع العلوم، كان هناك اهتمام أيضًا بتنظيم هذه الكتب ليسهل تداولها من قبل المستفيدين منها، فضلاً عن العاملين بتلك المكتبات.

وتتمثل الإجراءات الفنية المستخدمة فى إعداد وتنظيم المجموعات فى عمليات تسجيل الكتب، ثم الفهرسة، والتصنيف، والتنضيد، وأخيرًا الصيانة.

قد عرفت المكتبات الفاطمية نوعين من الفهارس، الأول : فهرست الموضوعات، وهو على شكل قوائم تكتب على أوراق، وتلصق على باب كل خزانة، تذكر فيها الكتب التى تحتويها تلك الخزانة، وهذا الفهرس هو المعمول به فى خزانة الكتب فى القصر،

حيث كان فيها "الفقه على سائر المذاهب، والنحو واللغة وكتب الحديث والتواريخ وسير الملوك والنجامة والروحانيات والكيمياء كل ذلك بورقة مترجمة ملصقة على كل باب خزانة"[١].

أما النوع الثانى من الفهارس فكان عبارة عن فهرس عامٍ بكل الكتب الموجودة فى المكتبة، وقد تم عمل فهرس من هذا النوع سنة (٤٣٥هـ/١٠٤٣م)، تحت إشراف الوزير أبى القاسم الجرجرائى، حيث كلف كلا من القاضى أبى عبدالله القضاعى، وابن خلف الورَّاق بعمل فهرست عام لخزانة الكتب بالقصر بالقاهرة[٢].

ولأنه لم تصلنا فهارس فإننا لا نستطيع أن نقف على حجمها وبياناتها والأشكال الأخرى لها، كما أن المصادر التاريخية لم تذكر لنا إلا النزر اليسير من المعلومات عنها، ويكفينا هنا فى المقام الأول التأكيد على وجود الفهارس واستخدامها فى ذلك الوقت.

ورغم أن المصادر التى تؤرخ للحياة الفكرية فى العصر الفاطمى لم تذكر لنا أى نظم خاصة بعملية التصنيف التى تم استخدامها فى المكتبات لتنظيم محتوياتها، إلا أننا نقف على نصٍ قد يساعدنا على تلمس طرق تنظيم المجموعات فى مكتبات هذا العصر.

ففى حديثه عن خزانة الكتب بالقصر، يحدثنا أبو شامة أن صلاح الدين الأيوبى قد عمد إلى الأمير بهاء الدين قراقوش متولى القصر بمهمة إخراج الكتب من بيوت الخزانة، وكانت آنذاك "مرتبة البيوت مقسمة الرفوف مفهرسة بالمعروف، فأخرجت من أماكنها وغربت من مساكنها وضربت أوكارها وشتت شملها واختلط أدبيها بنجوميها وشرعيها بمنطقيها وطبيها بهندسيها وتواريخها بتفاسيرها ومجاهيلها بمشاهيرها"[٣].

وفى هذا النص إشارة واضحة إلى أن تلك الخزانة كانت منظمة ومرتبة، وأنها كانت تعتمد على طريقة منهجية فى عملية التنظيم، ألا وهى الترتيب حسب الموضوعات، حيث كان يتم أولاً حصر العلوم الموجودة آنذاك، ثم ترتيبها بعد ذلك فى بيوت الخزانة بحيث يحتوى كل بيت منها على فرع من فروع العلم.

(١) المقريزى ، الخطط، جـ١ / ص٤٠٩ .

(٢) القفطى ، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص٢٨٦ .

(٣) أبو شامة، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين . جـ١ / ص٢٦٨ .

وكان من الطبيعى بعد تنظيم المجموعات المكتبية أن تقدم المكتبات العديد من الخدمات والأنشطة حيث تعتبر الخدمة المكتبية هى الهدف الرئيسى الذى تسعى أى مكتبة لتحقيقه على خير وجه، فتلك الخدمات هى المقياس الذى تقاس به كفاءة المكتبة فى أداء رسالتها من حيث توفير الكتاب المناسب للقارئ المناسب فى الوقت المناسب.

وقد قدمت المكتبات الفاطمية خدمة الاطلاع الداخلى والنسخ، وخدمة الإعارة الخارجية، وإلى جانب هذه الخدمات كان للمكتبات ـ بمختلف أنواعها وأحجامها ـ دورها الفعال فى العملية التعليمية، وذلك من خلال الخدمات التعليمية التى تقدمها، حيث اعتبرت المكتبة جزءًا لا يتجزأ من المؤسسة التعليمية، ومن خلالها يتم استكمال الحركة التعليمية الموجودة فى دار العلم والمساجد المتعددة التى وجدت بمصر الفاطمية.

قد ارتبط مصير المكتبات فى مصر الفاطمية بمصير الدولة نفسها، فطالما كانت الإمبراطورية الفاطمية موحدة وعلى رأسها خليفة أو حاكم واحد يمسك زمام الحكم فى البلاد، ظلت المكتبات فى أوج مجدها وازدهارها. وعندما بدأت الفُرقة والخلافات السياسية والمذهبية وتدهور الأوضاع الاقتصادية تعرف طريقها إلى البلاد، حينذاك بدأت الدولة الفاطمية فى الانهيار، فدب الضعف فى أرجائها، وتوالت عليها المحن والفتن السياسية، وقل اهتمامها بالحركة المكتبية والكنوز العلمية التى كانت تزخر بها المكتبات، وبدأت هذه الذخائر فى التبدد والضياع داخل البلاد وخارجها، وكأن بقاء هذه المكتبات كان مرهونًا ببقاء الدولة الفاطمية نفسها التى أخفقت فى السيطرة على العالم الإسلامى كله وفرض المذهب الإسماعيلى، ففقدت الدولة بذلك سبب بقائها واختفت هذه المكتبات باختفاء الدولة وزوالها على يد الأيوبيين.

وبين القوة والضعف تأرجحت أحوال المكتبات بمصر الفاطمية، وتعرضت لكافة أنواع الدمار والتخريب، فمنها ما كان وقودًا للنار، ومنها ما أُغرق أو تعرض للغَرق، وما نجا من هذا المصير أو ذاك تعرض للسرقة والنهب والإتلاف والبيع والمصادرة.

ومن الكتب التى صارت وقودًا للنار، كتب دار العلم بالقاهرة، ففى سنة (٤٦١هـ/١٠٦٨م) أحرقت قبيلة لَواتَة بعض أوراقها، اعتقادًا بأنها تضم كلام المشارقة الذى يخالف المذهب السنى[١]، ومن الخزائن التى أُغرقت خزانةُ كتب الأمير المبشر بن

(١) المقريزى ، الخطط ، جـ١ / ص٤٠٩، انظر أيضًا: اتعاظ الحنفا، جـ٢ / ص٢٩٥ .

فاتك، فقد أُغرق الكثير منها بعد وفاته، وكثير منها يوجد وقد تغيرت ألوان أوراقه، نتيجة لغيرة زوجته الشديدة من هذه الكتب لانشغاله بها عنها معظم أوقاته[١].

ومن المكتبات التى تعرضت للسرقة والنهب خزانة القصر التى نهبت سنة (٤٦١هـ/١٠٦٨م)، حينما دخل الأتراك قصر الخلافة وعمدوا إلى خزانة الكتب فأخرجوا منها الكثير، هذا سوى ما نهب ونقل إلى دار الوزير أبى الفرج محمد بن جعفر المغربى والخطير بن الموفق فى الدين نظير رواتب متأخرة لهم[٢]، وبعد استيلاء صلاح الدين الأيوبى على قصر الخلافة ومصادرة ما فيه من ممتلكات، أطلق لبيع كتب خزانة القصر يومين فى الأسبوع، واستمر هذا البيع لمدة عشر سنوات[٣].

وهكذا أُبيدت المكتبات الفاطمية على اختلاف أنواعها ولم يصل إلينا شىء منها بسبب الفوضى التى اجتاحت البلاد فى أواسط القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى، ثم بسبب تعصب الأيوبيين على الفاطميين وبيع كتبهم أو إتلافها لأنها كانت تحوى أفكار وآراء المذهب الإسماعيلى، دون التفرقة بين الكتب التى تضم هذه الآراء، والكتب الأخرى التى تزخر بمختلف العلوم والمعارف فى شتى المجالات، والتى فقدت الأمة بضياعها ـ دون شك ـ سببًا من أسباب تقدمها وازدهارها.

وبانتهاء العهد الفاطمى فى مصر وتولى السلطان صلاح الدين الأيوبى مقاليد الحكم، نكون قد وصلنا لنهاية تاريخ مكتبات مصر فى العصر الفاطمى، ذلك العصر الذى يعتبر البداية الحقيقية لشخصية مصر الإسلامية بعد الفتح العربى لها، ونقطة تحول خطيرة فى تاريخ الشرق الإسلامى.

(١) ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، جـ ٣ / ص١٦٣ .
(٢) المقريزى ، الخطط ، جـ١ / ص ص٤٠٨-٤٠٩ ، انظر أيضًا: اتعاظ الحنفا ، جـ٢ / ص ص٢٩٤-٢٩٥ .
(٣) أبو شامة ، الروضتين فى أخبار الدولتين، جـ١ / ص ص٢٠٠،٢٦٨ ، انظر أيضًا: المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣ / ص٣٣١ .